أحلام .. تحت الحذاء !

قصة جديدة بقلم محمد أبو المعاطي أبو النجا

كان يفكر ، ذلك الصبي الذي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره. وكانت ملامحه الصغيرة تنقل في أمانة مظاهر ذلك التفكير وتكاد تشف عن لونه الحزين القلق ، فالعيون الصغيرة التي تبدو وكأنما شدت احداقها إلى مكان لا يتغير ، والفم المفتوح نصف انفتاحة ، والخطوات البلهاء التي لا تكاد تنتقل بين موائد المقهى حتى تقف مستندة بصاحبها الى هذا العمود او ذاك ، واخيراً ذلك النداء الخافت المتقطع الذي ينبعث من شفتيه في اعياء ليذكّر رواد المقهى بما اصاب احذيتهم من وحل الشتاء ، كل ذلك كان يؤكد ان منصور ماسح الاحذية يضم قلبه على أسىً ولوعة .

* * *

والحقيقة أن منصور لا يكاد يتمثل في خاطره ما حدث في صباح ذلك اليوم حتى تسري في جسده قشعريرة هائلة، وتوشك ان تختنق عيناه بالدموع . ومن خلال الدموع تتراءى له صورة امه وهي تناول زوجها الاسطى حسن حذاءه فيستدير نحوها في ضيق ليصفعها ، وهو يهدر :

— كفاية .. هل نحن نجد ما نأكله ؟

كان وقتها واقفاً وراء الباب يترقب ؛ فمنذ ايام طلب إلى امه ان تخبر عمه حسن — فهكذا كان يناديه — بأنه في حاجة إلى حذاء جديد ، فالشتاء قد اقبل ورطوبة الارض لا تطيقها قدماه .. والحقيقة انها ليست رطوبة الارض وحدها هي التي دفعته الى طلب الحذاء الجديد ، بل هناك امنية اخرى خفيّة كانت تستتر وراء هذا السبب المعقول . فمنذ شهور وهو يحلم بحذاء جديد يحرص دائماً على تلميعه وتنظيفه حتى يظل محتفظا برونقه ، ومحتفظاً بشيء آخر هو اغلى ما يحرص عليه ، هو ذلك الصوت الموسيقي الحلو الذي تحدثه نقلة القدم في الحذاء الجديد او الحذاء المدهون !

كانت تلك الأمنية الغالية تراود رأسه الصغير ، ولم يكد يقبل الشتاء حتى وجد من ذلك سبباً معقولاً يجعله يطلب ذلك من امه ، لتطلبه بدورها من عمه « حسن » . وها هو قد وقف خلف الباب ليسمع الحديث الذي بدأته امه وهي تناول زوجها ملابسه وتحاول بطبيعة المرأة ان تستلينه الى ما تريد ، ولكن الزوج الذي يستيقظ عادة كل صباح وقد زال من رأسه اثر الحشيش كما زال من جيبه اثر النقود، هذا الزوج لم يكن مستعداً للتأثر او الليونة، وإنما كان مستعداً لأن يصفع زوجته وهو يهدر:

— كفاية .. هل نحن نجد ما نأكله ؟

لقد أحس منصور إذ ذاك كأن هذه اللطمة تقع على جسده كله فتسحق كل مشاعره ، حتى لقد ظل لحظة مسمّراً في مكانه لا يحس بشيء غير ذلك الذعر الميت الذي امتص من عروقه الدم ! ثم أحس برغبة جارفة في ان يخمش باظافره وجه الاسطى حسن ، وان يعض كفه الغليظة الخشنة .. وان .. ولكنه سرعان ما زايل مكانه مختبئاً في دورة المياه ، حين سمع وقع قدميه وهو يهم بالخروج ، ثم عاد إلى حيث كانت امه واقفة معتمدة خدها بكفها ومرتفقة بيدها الاخرى حافة النافذة، وقد أطرقت بعينيها الى الارض كأنما لتداري عن ولدها ما فيهما من جزع دفين .. وتقدم منصور من امه في خطوات بطيئة حتى التصق بها، فخبأ وجهه في ثيابها وراح ينشج في صوت مكتوم.. لقد أحس وقتئذ بحب شديد نحو امه.. حب غامر دافق كأنما يود ان يدفع به عنها إساءة الزوج الشرس . وفي غضون هذا الحب كان يشعر ايضاً بضيق خفي واشمئزاز دفين .. كان يتساءل :

« لماذا تزوجت امه هذا الرجل الذي يصفعها والذي ليس أباه ؟ هذا الرجل الذي يأخذ منه آخر النهار كل ما حصل عليه من قروش ولا يكاد يترك له شيئاً ، فهو يعرف ما يمكن ان تربحه زجاجة الصبغة وعلبة الورنيش، فيحاسبه على ما استهلك من زجاجات وعلب ؟؟ إن القروش التي يجمعها تكفيهما معاً بغير حاجة الى الاسطى حسن ، ولو انها تركته لضاعف هو ما يجمع من قروش ولامتنع عن الذهاب إلى السينما خلسة مع الفوضى لمشاهدة طرزان وملكة الفهود .. »

وهمّ بان يخبر امه بكل ذلك، لولا انها نحته عنها برفق وهي تقول : « لا بأس يا بني .. خذ علبة الورنيش وعد الى شغلك ، وبكره ربنا يفرجها ! »

لو كان ابوه حياً لما جرؤ الاسطى حسن على ان يدخل داره فضلاً عن ان يصفع بيده القذرة امه ، ولكن اباه مات وهو

صغير .. فتزوجت امه من الاسطى حسن ليعيلها هو والطفل وهذا كل ما يعرفه عن ماضيه .

* * *

— منصور .. منصور ..

والتفت منصور في دهشة . كانت تلك اول مرة يسمع فيها رجلاً يناديه باسمه ، فقد تعود دائماً ان يسمع من الاسطى « حسن » ومن غيره كلمة « يا ولد » ..

وأحس لهذا النداء بوقع جميل على مشاعره ... ما أجمل ان يناديه الناس باسمه ! وما أجمل ان .. وتبلدت خواطره حينما اقترب من مصدر الصوت وأدرك ما حدث من التباس . لقد كان الافندي الجالس الى المنضدة الخلفية ينادي صغيره الذي وقف على الطوار الممتد امام المقهى ليتفرج على مظاهر الطريق ..

وعاد الابن الى ابيه ووقف منصور يداري حيرته .. وكان الأب قد أدرك ما حدث من ارتباك فابتسم لمنصور ماسح الاحذية وقال له :

— انت اسمك منصور ؟

— نعم !

— هل تمسح الحذاء جيداً يا منصور ؟

— نعم يا بيه ..

واعتدل الاب في جلسته واضعاً مبسم الشيشة في فمه بينما انكفأ منصور على الحذاء يمعن في تنظيفه وتلميعه .. وبين لحظة واخرى كانت عيناه تختلسان النظر إلى وجه الاب الذي انشغل عنه بمداعبة ولده حيناً واجتذاب انفاس الشيشة حيناً آخر . ومن خلال هذه النظرات كانت تنبعث خواطره ..

— لو ان والده لم يمت .. لو انه عاش .. لكان من الجائز ان يحضر الى هذا المقهى ليدخن الشيشة ، ولحضر هو معه ولصفق بيديه مستدعياً الجرسون — الجرسون الذي لا يفتأ يناوئه في غدوه ورواحه — ليطلب منه واحد (سحلب) .. وراح يتصور والده ، والده الذي لم يره . كانت الصورة تستمد معالمها من وجه ذلك الأب الذي يمسح حذاءه : عينيه ، وشاربه ، وطربوشه ، وهو . كان ، إذ ذاك سيكون صورة قريبة من منصور .. منصور الآخر الذي يجلس على الكرسي المجاور ويشرب قدحاً من السحلب ولا يفتأ يسأل والده عن هذا الشيء أو ذاك ! كان سيلبس مثله «بنطلوناً» قصيراً فوقه ذلك (الجرس) الاحمر الجميل ، ويضع بعناية فوق رأسه ذلك « الكاسكيت » الرمادي ويميله قليلاً إلى اليمين ، تماماً كما يفعل منصور . ومضت خواطره ترتاد في خطى ذاهلة ارض الأحلام ، ثم تريثت تلك الخواطر بعد ان فرغ من مسح الحذاء وهمّ بان يعيد ادواته إلى مكانها من العلبة غير أن منصور .. منصور الآخر قد هز قدميه الصغيرتين وهو يقول : وانا أيضاً اريد ان امسح يا بابا !

— ولكن حذاءك جديد يا منصور ...

— لا يا بابا ... أنا اريد ان يلمع تماماً كحذائك ...

وانتقل منصور أمام الكرسي المجاور ليمسح للصغير حذاءه الجديد ... وتركزت عيناه فوق الحذاء الذي لم ينتبه إلى جدته إلا الآن فقط .

كان حذاء انيقاً تتلوى في انحائه النقوش وتصنع حلقات وحلقات ... وكان اللونان الابيض والاحمر يتوزعان في انحائه بطريقة استأثرت طويلاً بعيني ماسح الاحذية الصغير ... ما اكثر ما رأى من احذية ! في اقدام الناس وفي معارض المحال الزجاجية ولكنه ابداً لم يبصر مثل هذا الحذاء الجميل . وأحس بشعور جديد يطفو فوق مشاعره المتماوجة المختلطة ، شعور بالأسف لأنه لم يحلم بمثل هذا الحذاء الأنيق .

وانكفأ فوق الحذاء يتلطف في تنظيفه وتلميعه ... كان يتحسس جلده الناعم في شغف كبير . كان يبدو كمن يربت عليه ... والواقع انه في هذه اللحظات كان لا يدرك حقيقة مشاعره . كان قلبه الصغير يستقبل اخلاط المشاعر المتباينة كما يستقبل رأس المحموم حشداً من التصورات لا صلة بينها ولا ارتباط . ففي الوقت الذي كان يشعر فيه بسعادة بالغة لأنه رأى هذا الحذاء الجميل ، ولأنه ملء يديه يتلمس جلده الحلو ونقوشه البهيجة ويتعهده بالتلميع على هواه ، في هذا الوقت وربما في غضون هذا الشعور ، كان يحس بضيق ملحّ وسخط مرير ، لان هذا الحذاء ليس له ولن يكون له بحال ! وفي الوقت الذي يشعر فيه برغبة خاصة في ان يفتنّ في تنظيفه وتلميعه مهما كلفه ذلك من « ورنيش » حتى يخرج من تحت يده وهو صورة رائعة لأحلامه الماضية ، في هذا الوقت ايضاً كان ينسلّ من رأسه خاطر شيطاني ... ماذا لو احدث في هذا الجلد كشطاً بقطعة الصفيح المحدّدة التي يزيل بها اثر الطين من نعل الحذاء ؟ كشطاً يشوه منظره دائماً فلا يبدو وهو في هذا الرونق ابداً ؟ ماذا سيحدث ؟ لا شيء ! سيبكي ويقسم لهم ان ذلك حدث بالرغم منه وسيصدقونه من غير شك وسيتركونه ، غير ان الحذاء سيبقى

نزوع الادب

بقلم داود جرجس درويش

بين أدب «الحبر والورق» وأدب «اللحم والدم» او بين أدب الانطواء وأدب الانضواء، او قل بين أدب الاعتزال وأدب الالتزام يذر قرنه اليوم في الأدب العربي، في مصر ولبنان، صراع اين منه صراع القديم والجديد إبان عصر النهضة الادبية في القرن السابع عشر الاوربي. بل هو نتيجة متسلسلة عن صراع القديم والجديد في كل العصور وكل الامم، هذا الصراع الابدي بين حلقة تطورية سابقة وحلقة لاحقة.

فمن مذاهب في الادب متنوعة في الغرب والشرق: من كلاسيكية ورومنتية ورمزية وسادية وبرناسية وواقعية، وحياتية وسوريالية، الى كلاسيكية جديدة فالتزام وجوديّ الى أدب مستقل، أدب الفن للفن، والى أدب منضوٍ الى مختلف الألوية الفكرية من اقتصادية وسياسية واجتماعية وفلسفية، الى أدب ملتزم اجتماعي، قومي أو انساني.. الى مختلف الضروب والانواع والتفرعات من كل مدرسة ادبية على حدة..

في غمرة هذا الصراع الذي يجد مقدماته في جذور التاريخ البعيد ويبسط اجنحته عبر الحيز الارضي، والذي ينتقل تياره اليوم الى الشرق العربي، لا بد ان تتضارب الآراء وتتشابك المفاهيم، وتتفاعل الخلاصات — ولا بد ان ينظر الاديب الناشىء حوله فاذا بفوضى تتراءى له في مناهج الادب، بله في مناهج الاجتماع، وفي مناهج الحضارة والفكر.. وقد يتردد حينذاك بين حلول ثلاثة:

يعتزل الادبَ والمجتمع خشية على عقله من الاختلاف تجاه هذه البلبلة الطاغية..

أو ينضوي الى لواء — أيّ لواء — من ألوية الفكر والأدب المنشورة، فيضيف الى عدد جنودها بطلاً جديداً..

أو هو يتحدى كل سمتٍ سلفه فيروح يختط لنفسه السبيل عبر ادغال الحياة ومجاهل الكون. وقد يتيح له الحظ قدراً، فيتألب من حوله الانصار والمعجبون، ويسير على غراره الناسجون — هذا اذا لم يتصدّ لهم البعض داعياً الى ان يكون كل اديب حزباً قائماً بذاته — .. وقد يعيش اذاً منعزلاً وحيداً سجين نفسه وافكاره، الكل في وادٍ وهو في واد، كواحة في صحراء، او ان شئت فقل كوتد في روضة..

ادب الاعتزال

معذرة من الاستاذ عبد اللطيف شراره اذا كنت قد تطفلت على ادبه بمثل هذه الطريقة المفاجئة. واسرع فاؤكد له «اني بعيد كل البعد عن روح الاجرام والارهاب والايذاء» وعن «الدعاوات المغرضة والاباطيل الكاذبة» ولست اذاً ممن ينوون به شراً او اذى.. انما هي عبارة ذكرتها له فايقظت ما كان تبقى في كوامن نفسي من انفة وتحرر، وقد كادت تنزلق رجلاي مع التيار.. فما يذهلني ان اراه هو نفسه حائراً متردداً، ينقل رجلاً من البرعاجية ليلقي بها الى «الحرية التي هي القاعدة ولا قاعدة غيرها» والى «استقلال الشخصية..» وتفردها بما تعطي وتغلّبها على القيود الاجتماعية التي تحد من انطلاقها «في آفاق النور والمعرفة والاختبار» وفي «ان كل اديب حزب قائم بذاته، فلا يطمئن في حقل الحياة العامة الا لما يراه».

برغم ما عليه من ورنيش رديء المنظر فاقد الجدة. غير ان الخواطر في رأس منصور كانت تخضع لقانون المد والجزر، فسرعان ما كانت تنحسر عن رأسه جاذبة معها كل ما في قلبه من عزم وتصميم.

وفرغ «منصور» من مسح الحذاء، وانتزع يديه منه. وراح يجمع أدواته ليعيدها إلى مكانها من العلبة، بينما وقف الاب وامتدت يده إلى جيب سترته تخرج ورقة من فئة العشرة القروش أعطاها إلى «الجرسون» ليأخذ منها حسابه ثم اخذ منه القروش الباقية ونقد منصور منها قرشين !!

وهمّ بمغادرة المقهى مصطحباً صغيره بيده، فتراجع منصور قليلاً الى الوراء ليفسح لهما الطريق، ثم ما لبثا ان تابعهما بعينيه وهما يمضيان في الميدان الفسيح. كانت عيناه تبصران غيرهما في الميدان الذي يغص بالناس. وكانت أذناه تلتقطان من بين الضجيج الصاخب — الذي ينبعث من عجلات الترام والسيارات ونداء الباعة — صوتاً موسيقياً جميلاً كانت تحدثه نقلة القدم في الحذاء الذي يلبسه منصور.. منصور الآخر.

(القاهرة) • **محمد ابو المعاطي ابو النجا**